العلاقات العباسية البيزنطية (العلاقات الحربية والدبلوماسية أُنموذجاً)

د. عبدالله عبدالعزيز التقّـــاز ـ كلية التربية أبي عيسى – جامعة الزاوية.

التقديـــم :

بعد قيام الدّولة العباسية ، وتحديداً منذ تولي الخليفة أبوجعفرالمنصور سنة 136هـــ ، ظهرت بوادر للعلاقات العربية بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة العباسية ؛ إذ تركزت سياسة العباسيين على صدّ العدوان البيزنطي الـذي كانت تتعرض له الثغور الإسلامية الممتدة من أعالي الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ، وقد استطاع الخليفة أبوجعفر المنصور أن يضع حدّاً لمطامع البيزنطيين وعدوانهم بما اتخذه من نظام يحفظ الثغور ، ويصونها، وكانت سياسة الخليفة المهدي هي امتداد لسياسة أبيه العدائية نحو البيزنطيين ، وخصوصاً بما يتعلق بالنواحي العسكرية حيث كان يقود الحملات العسكرية بنفسه مصطحبا ابنه هارون ، ويخترق آسيا الصغرى، حتى أن الإمبراطورة (إيـــرين Irene) التي كانت تحكم وصاية على ابنها قسطنطين السادس، اضطرت إلى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين سنة 165هـ ، أما في عهد هارون الرشيد فقد بلغت العلاقات مع البيزنطيين أوجها حيث ارتبط بعلاقات ودية مع إمبراطورية الدولة الرومانية شارلمان ، وتم تبادل السفارات والهدايا بين الطرفين ، وعلى هذا الأساس فإن هذا البحث يقوم على استعراض العلاقات العباسية البيزنطية بجانبيها الحربي والدبلوماسي لما له من أهمية تاريخية.

خطة البحث :

وقد تم تقسيم البحث إلى أربعة مطالب ، المطلب الأول : العلاقات العسكرية بين الدولتين، والمطلب الثاني: العلاقات العباسية البيزنطية في عهد هارون الرشيد ، والمطلب الثالث : العلاقات العباسية في عهد المأمون ، والمطلب الرابع : العلاقات البيزنطية في عهد المعتصم بالله، ثم الخاتمة التي ذكر فيها أهم ما خلص إليه البحث

المطلب الأول ــ العلاقات العسكرية بين الدولتين:

ورث العباسيون في جملة مأثورة عن الأمويين الجهاد التقليدي ضد البيزنطيين بحكم الحدود المشتركة([1]) ، ولكن صراع العباسيين مع البيزنطيين اتّسم بسمات دينية فكان هدفهم الجهاد في حين كان الأمويون يتطلعون إلى قهر القسطنطينية ، والسيطرة على البحر المتوسط الشرقي ، وعلى هذا الأساس أصبحت الحرب بين

العرب والبيزنطيين في العصر العباسي لا تعدو تبادل الغارات ، وما يصحب ذلك من تدمير ، وتخريب ، وقتل ، وسبي ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى قلة اهتمام البيزنطيين بالبحرية من جهة ، وتحول السياسة الاسلامية للعباسيين بعد قيام دولتهم إلى الشرق([2]) . وسنتناول في هذ المبحث بعض النقاط المهمة بالتفصيل :

أولاًـ خلافة السـفاح:

استغل البيزنطيون انشغال العباسيين بتأسيس قواعد دولتهم زمن السفاح فهاجم الإمبراطور قسطنطين الخامس منطقة الثغور الجزرية ، ودمر تحصيناتهم بما في ذلك ملطية ([3]) ، وفي سنة 132هـ أمر أبو العباس (السفاح) أبوعبد الله بن علي يعلمه أن العدو قد تسلل بالغفلة عنه ، وأمره أن ينقذ بالجيوش التي معه ، فبثّ جيوشه في نواحي الثغور ، وزحف حتى قطع الدرب، ولم يزل يعبئ حتى أتاه خبر وفاة العباس ، فانصرف([4]).

ولما كانت سنة ثلاث وثلاثين ومئة أقبل قسطنطين بجيوشه نحو ملطية ، وكمخ، وكانت يومئذ في أيدي المسلمين، وعليها رجل من بني سليم ، فبعث أهل كمخ الصريخ إلى أهل ملطية ، وخرج إلى الروم منهم ثمان مائة فارس، في مواجهة خيل الروم فهزم منهم ، وسار قسطنطين، فناخ على ملطية فحاصر من فيها والجزيرة يومئذ مفتونة ، وعاملها موسى بن كعب مجران، فواجهوا رسولهم إليه فلم يمكنهم إغاثتهم([5]) .

وبلغ قسطنطين ذلك ، فقال لهم : يا أهل ملطية إني لم آتيكم إلا على علم بأمركم ، وتشاغل عن سلطانكم انزلوا على الأمان ، وأخلو المدينة ، فأبو فوضع عليها المجانيق ، فلما جهدهم البلاء ، واشتدّ عليهم الحصار ، وسألوه أن يوثّـق لهم ففعل ، ثم استعدوا للرحلة ، وحملوا ما خف لهم ، وألقوا كثيرا مما ثقل عليهم في الآبار والمخابئ، ثم خرجوا وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا فيها ، وهدم الروم ملطية ، وهدموا حصن فولاذية ([6]) .

ثانياـ الخليفة أبوجعفر المنصور:

فلما تولى أبوجعفر المنصور الخلافة عمل على تحصين مناطق الثغور الجزرية ، والشامية، وشحنها بالمرابطة ، ففي سنة 139هـ كتب المنصور إلى صالح بن على العباسي يأمره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى المنصور أن يجعل لهذه المنطقة الثغرية كياناً إدارياً قائماً بذاته منطلقا لغزو الروم ، فولّى على الجزيرة

وثغورها عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام ، كما أمـــر في سنة 139هـــ بعمران حصن المصيصة ، وكان قد قلّ سكانها ، وتخرّب صورها ، فوجّــه صالح بن علي إليها جبريل بن يحي البجلي فسكنها أهلها ، وبنى صورها في سنة 140هـ([7]) ، وغزت مع صالح بن علي العباسي اختاه أم عيسى ولبابة ([8]) ، وسماها المعمورة ، وبنى فيها مسجدا جامعا في موضع هيكل كان بها، وفرض المنصور فيها ألف رجل، ثم نقل أهل الخصوص ، وهم : فرس ، وصقاليه، وأنباط ، ونصاري ، كان قد أسكنهم مروان بن محمد فيها ([9]) ، أما ملطية فقد توجه إليها عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطب في جنود خرسان فاستدعى جند الشام والجزيرة ، فتوافى معه سبعون ألف عسكر بهم في ملطية ، ثم جمع الفعلة من كل بلد فأخذ في بناءها ، وكان الحسن يطعم الناس من ماله ، ويحمل الحجر بنفسه، ويناوله للبناء طلبا لثواب الله، وجـدّ الناس في العمل حتى انتهوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ، وبنى للجند الذين سكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقها ، وإسطبل ، والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر رجل ، وبنى لها مسلحة على بعد ثلاثين ميل ، وبنى مسلحة على نهر قباب الذي يصب في الفرات ، ثم أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة ؛ لأنهم من ثغورهم، ووضع فيها شحنتها من السلاح ، واقفع الجند المزارع ، وكذلك بنى حصن فولاذية، وفي سنة 141هـ أقبل إليها محمد بن إبراهيم في جند من أهل خرسان ، فرابط بها حتى لا يطمع فيها البيزنطيون ، ولهذا السبب اجتذبت المدينة عدد من السكان المدنيين ورجع إليها من كان باقيا من أهلها([10])، و في سنة 142هـ بنيت مدينة أذنة ، وعسكر عليها الجند من الخرسانيين مع مسلم بن يحي البجلي ، وجند من الشاميين مع مالك بن أدهم الباهلي، ووجهها صالح بن علي العباسي لهذا الغرض([11]) ، لذلك اهتم صالح بن علي بترميم حصن مرعش بعد أن خربته القوات البيزنطية إبان الفتنة التي قامت زمن مروان بن محمد ، وحصن صالح بن علي ، وندب الناس إليه على زيادة العطاء([12]) .

وهكذا نظم صالح بن علي بتوجيه من المنصور مناطق الثغور ، وحصنها ، وحدد اسلوب القتال وتقاليده من صوائف وشواتي ، ووضع بذلك حد لمطامع قسطنطين الخامس ، وظهر في أيامه قائد من قواد العرب العظام هو مالك بن عبد الخشمي ، وغزا بلاد البيزنطيين سنة 146هـ ، وغنم غنائم كثيرة ، وأبلى بلاءً حسنا فسمي بذلك مالك الصوائف([13]) .

ثالثاً ــ خلافة المهدي:

اتبع المهدي نفس سياسة أبيه من حيث الاهتمام ببناء الحصون الثغرية ، وشحنها بالأجناد ، فحصن طرسوس ، وشحنها بالمقاتلة ، وكانت خرابا ، وأمر الحسن بن قحطبة ببنائها ، كما أمـــره ببناء الحدث ، فبدأ بالحدث ، وانتهى بطرسوس([14]) ، وفرض المهدي بالمصيصة الألف رجل ، وكانت الطوالع تأتيها من أنطاكية كل عام إلى أن وليها سالم البرلسي([15]) ، وفي عهد المهدي سيّـــر الإمبراطور (ليو الرابع) المعروف بالخـــرزي (775- 780) حملة ضد (سمسياط) في سنة 159هـ (776م) فرد عليه المهدي حملة قوية بقيادة العباس بن محمد أنقرة([16]) ؛ ولكن البيزنطيين خرجوا في عام 151هـ بقيادة ميخائيل " لعله ميشيل العموري قبل أن يرتقي العرش"، من درب الحدث في ثمانين ألف ، فأتى عمق مرعش ، فقتل وسبي من المسلمين عددا كبيراً وأحرق ما قابله من عمران ، وما زال يعمق في الغزو ، حتى وصل مدينة مرعش ، وبها عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم فرشقوه بالنبال والسهام، فتظاهر بالانسحاب ، ثم كر عليهم فقتل من موالي عيسى ثمانية نفر ، واعتصم الباقون بالمدينة ، فحاصرهم بها، ثم رفع الحصار ومضى إلى حيحان، وبلغ الخبر ثمامة بن الوليد العبسي وهو مقيد بدابق، وكان قد تولى قيادة الصائفة سنة 161هـ فوجه إلى شبيل خيلا كثيفة فأصيب البيزنطيون إلا من نجا منهم([17]) وأغار البيزنطيون على حصن الحدث في العام التالي فهدموا سوره([18]) .

وكان الخليفة قد وجه الحسن بن قحطبة بالصائفة ، فساح في بلاد الروم ، وثقلت وطأته على أهلها حتى أنهم صوروه في كنائسهم وسمّوه التنين، ومـــرّ الحسن في غزوته غير درب الحدث ، فشاهدها خربة ، فحدث المهدي في بناءها ، وبنى طرسوس ، وذلك عقب عودته من الغزو ، فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث ، فأعيد بناؤها سنة 169هـ ، وسميت المحمدية أو المهدية ، وفرض علي بن سليمان لمدينة الحدث أربعة ألاف فأسكنهم فيها ، ونقل إليها ألفا رجل من ملطية ، وشمشاط ، وكيسوم ، ودلوك ، ورهبان، ولكن الحدث لم تلبث وتشعث بنائها ولم يتم ترميمها وتحصينها إلا زمن هارون الرشيد([19]) .

وفي سنة 163هـ تجهز المهدي لغزو بلاد البيزنطيين، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستصحب معه ابنه هارون ، ثم عبر الفرات إلى حلب ، ومن هناك عهد إلى ابنه هارون بمواصلة الغزو، وسير معه بصحبته عيسى بن موسى ، وعبدالملك بن صالح ، والحسن بن قحطبة ، وسليمان ابن برمك ، ويحي بن خالد بن برمك ، وخرج

المهدي مع الحملة مودعا لابنه هارون حتى قطع الدرب ، وبلغ جيهان وارتاد بها المدينة المسماة المهدية ، وعندئذ ودّع هارون عند نهر جيجان ، وعاد الى حلب ، أما هارون فقد تابع حملته حتى نزل على حصن سمالو ، فحاصره ثمان وثلاثين يوما ، ونصب عليه المجانيق، وفتحه بالأمان ([20]) كما فتح فتوحا أخـــرى كثيرة ، وفي العام التالي غزا المهدي بقيادة عبدالكريم بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحدث ، فتصدى له مخيائيل البطريق، وطازاد الارنسي البطريق في نحو تسعين ألف مقاتل ، فدب الرعب في قلب عبدالكريم ، وخاف أن يشتبك مع البيزنطيين، فمنع الناس من القتال ، وعاد بهم فأراد المهدي قتله فشفع فيه ، فاكتفى بحبسه بالمطبق ([21]) ، وعزم المهدي في العام التالي 165هـــ أن يسير ابنه هارون الى بلاد الروم كرد فعل على لتراجع عبدالكريم ففي هذه السنة وجه المهدي الصائفة بقيادة ابنه هارون لغزو بلاد الروم ، وضم اليه الربيع مولاه ، فتوغل الرشيد في بلاد الروم ، فافتتح ماجدة، وتصدى له البيزنطيون بقيادة لقيطا ، وواصل هارون توسعة في قلب آسيا الصغرى متجهاً إلى نقمودية (نيقوميديا) ليحارب الدمستق صاحب المسالح ، وكانت عدة جيش هارون 95793 مقاتل ، ومازال يجد في زحفه حتى خليج القسطنطينية، وكان إمبراطور بيزنطة في ذلك الوقت (إيرين) أرملة(ليو الرابع) ، والوصية على ابنها (قسطنطين السادس) .

ويعبر الطبري عن ذلك بقوله : "حتى بلغ خليج البحر الذي على آلة القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ(أغسط) امرأة (ليـــون) ، وذلك ان ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجره " ، وخافت (إيرين) أن ينجح المسلمون في التغلب على القسطنطينية العظمى ، وآثرت أن تشتري سلم المسلمين بالجزية ، فجـــرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة ودفع الجزية فقبل هارون ذلك منها ، واشترط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم له الإدلاء والاسواق في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين ، فأجابته الى ما سأل ، والذي وقـــع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران ، فقبل ذلك منها فأقامت له الأسواق في منصرفة ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدّي ما تيسر من الذهب ، والفضة، والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسلمت الأســـارى([22]) .

المطلب الثاني ــ العلاقات العباسية البيزنطية في عهد هارون الرشيد:

وفي عهد هارون الرشيد استمر الصراع ضد بيزنطة طوال عهده ، وازدادت حدّته بسبب عدم اهتمام الخليفة اهتماما خاصا بالجهاد ، وذلك منذ أيام والده المهدي الذي كان يعهد إليه بقيادة الحملات في بلاد الروم ([23]).

لقد بـــدأ هارون الرشيد خلافته الافتراضية الأساسية سنة 170هـ بإجراء إصلاح رئيسي على الحدود البيزنطية ، فأصلح الثغور جميعها ، وشحنها بالحاميات من الخراسانية ، وجعل هذه المنطقة ولاية مستقلة وأسماها العواصم ، وكانت الصوائف ، وفي بعض الأحيان الشواتي تسير إلى أرض الروم بانتظام ، وكان الاسطول يساعدها في البحر في كثير الأحيان ([24]) ، وفي سنة 181هـ ـ سار هارون الرشيد بنفسه على رأس الجيوش ، وفتح عدد من الحصون حتى وصل إلى القسطنطينية ([25]) ، كما غزا قائده عبدالملك بن صالح بلاد البيزنطيين في نفس السنة فبلغ أنقره ([26])

وكان يملك الروم في ذلك الوقت (إيرين) ، فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة ، وعلى فداء الاسرى ، وتـولى ذلك من قبل المسلمين ، القاسم بن الرشيد ، ومعه الأعيان من أهل الثغور والعلماء ، وتم التبادل قرب طرسوس ، وكان عدد المتبادلين من الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة([27])، وفي سنة 187هـ توغّـل ابن الرشيد في أرض الروم ، وحاصر عدداً من الحصون حتى اضطر البيزنطيون إلى شراء انسحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية، وتحرير أكثر من ثلاثمائة وعشرين أسير مسلما ، وفي هذه الاثناء قامت ثورة في بلاد بيزنطة كان من نتائجها خلع (إيرين) ، واعتلاء وزير ماليتها(نقفور) العرش ([28])، وقد عمل الإمبراطور الجديد على نهج على سياسية المناهضة ، فرفض دفع الجزية ، وكتب إلى هارون الرشيد: "من (نقفور) ملك الروم الى هارون ملك العرب ، أما بعد : فإن الملكة التي قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيق أمثاله اليها؛ لكن ضعف النساء، وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلاّ السيف بيننا وبينك" ([29]).

فلما قرأ هارون الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، وكتب على ظهر الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم، من هـــارون الرشيد أمير المؤمنين إلى (نقفور) كلب الروم قرأت كتابك والجواب ما تــراه دون ما تسمعه والســلام" ، ثم زحف هارون الرشيد

على الفور على رأس حشود كثيفة من الجند ، واخترق آسيا الصغرى، واقتحم منطقة الثغور حتى نزل على باب هرقلة ففتحها، وغنم غنائم كثيرة ، وأحرق ، وخرب ، وأرغم (نقفور) على طلب الهدنة ، وتعهد إليه فيها بدفع جزية سنوية يؤديها للمسلمين ، إلا أنه نقض الاتفاق، وهو يظن أن المسلمين لا يغزون في الشتاء ، فلما علم هارون بذلك كـــرَّ راجعا حتى وصل إلى أرض الروم ، ولم يبرحها حتى بلغ ما أراد([30]) .

وفي العام التالي غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخل أرض الروم من درب الصفصاف، وفي هذه الغزوة من سنة 188هـــ ، قتل من البيزنطيين أربعون ألف وسبعمائة ([31]) .

وفي سنة 189هـ تم أول افتداء بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي الأول ببلدة اللامس الواقعة على بعد نحو 35 ميلاً من طرسوس في خلافة هارون الرشيد ، وكان (نقفور بن ستور اكيوس) الإمبراطور البيزنطي هو الذي افتدى ، وقدمت مراكب الروم الحديثة تحمل أسرى المسلمين ، وبلغ عدد من تم افتداؤه من المسلمين خلال اثنين وعشرين يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير ، حتى لم يبق أسير مسلم .

وقد نكث (نقفور) عهده ، وامتنع عن دفع الجزية ، وحاول أن يستعرض قوته ، وخرج إلى عين زربة ، وخرب عين زربة ؛ ولكن حامية المصيصة هاجموا قواته، واسترجعوا معظم ما ظفر به من غنائم وأسرى([32])، وغضب هارون الرشيد لهذا الاعتداء وعزم على تأديب (نقفور) ، وخرج سنة 190هـ على رأس جيش ضخم عدده 135 ألف مرتزق ســوى الأتباع والمتطوعة ، وافتتح هرقلة في شوال ، وخربها ، وسبى أهلها ، وذلك بعد شهر واحد من الحصار وبث السرايا والجيوش في داخل الأراضي البيزنطية ، فافتتح شرحبيل بن معين حصن الصقالية ، وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف ، وزحف الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ، ورحل عنها بعد أن خلف عليها عقبة بن جعفر، وعجز (نقفور) عن مواجهة المسلمين لذلك طلب الصلح وأرسل إلى الرشيد بالجزية ، وقدرها خمسون ألف دينار ، منها على رأسه أربعة دنانير ، وعلى رأس ابنه (استرياق) ديناران، وأهدى إلى الخليفة مائة ثوب ديباج ، وأثني عشرة بازيا ، وأربعة من كلاب الصيد ، وعقدت معاهدة الصلح ، واشترط فيها (نقفور) على الخليفة ألا يخرب حصون ذي الكلاع وسنان ، فيعيدها بيزنطية سالمة كما اشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلة ، وعلى أن يحمل إليه (نقفور) ثلاثمائة ألف دينار([33]) .

انتظر (نقفور) فرصة انشغال الرشيد بخراسان ، ونقض المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين فسير هارون الرشيد لغزو الصائفة في عام 191هـ ، وقائده هرثمة بن أعين على رأس جيش يتألف من ثلاثين ألف محارب من جند خراسان ، ثم مضى الرشيد إلى ضرب الحدث فرتب عليه عبد الله، وعهد بمرعش إلى سعيد بن سالم بن قتيبة ، وحدث أن أغار البيزنطيون في هذه الآونة على مرعش، وأصابوا فيها عددا من المسلمين.

وفي سنة 192هـ كان الفداء الثاني باللامس ، وكان القائم بالفداء من جانب المسلمين ثابت بن نصر مالك الخزاعي أمير الثغور الشامية، وفودي من المسلمين في سبعة أيام نحو ألفين وخمسمائة رجل وامرأة([34]) . ومات الرشيد في جمادى الآخرة سنة 192هـ.

المطلب الثالث ــ العلاقات العباسية في عهد المأمون :

لم يكن بين المسلمين والروم حروباً في أول عهد المأمون إلى سنة 215هـ([35])، حيث عاد الصراع بين الدولتين سيرته الأولى ، فقد شجع المأمون (توماس الصقلي) الذي ثار في آسيا الصغرى على الإمبراطور(توفيل) ، وأمده بالمال والرجال ، وعمل على تتويجه إمبراطورا على الدولة البيزنطية نفسها ، ولكن سرعان من انكشف حيلته ولم يتم مـــا أراد([36]) حيث شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في محرم (مارس سنة 830)، واستخلف على المدينة إسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، وسلك الموصل حتى صار الى دابق ثم انطاكية، ومنها خرج إلى طرسوس، وهي الثغر الإسلامي ، ومن طرسوس دخل الروم في منتصف جمادى الأولى (يوليو 830م) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه لما فتحه ، واشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ، ثم خلى سبيلهم([37]) ، وواصل سيره حتى وصل إلى هرقلة، فخرج أهلها على الصلح ، ووجه أخاه إسحاق ، فافتتح ثلاثين حصناً([38]) ، ووجـــه يحيى بن أكتم من طوانة ، فأغار وغنم ، ورجع الى المعسكر، ثم خرج المأموم إلى كيسوم ثم دمشق، ومنها خرج إلى مصر في سنة 216هـ([39]) ، ثم عاد إلى دمشق سنة 217هـ فدخل أرض الروم ثالث مرة ، فحاصر حصن لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها ، وخلف عليه أحد قواد (عجيف) على حصاره([40]) فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيرا في أيديهم ثمانية أيام ، ثم أخرجوه إلى لؤلؤة ، فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه ، فارتحل فخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان([41]).

وكاتب ملكُ الروم المأمونَ طالباً الصلح : " أما بعد : فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا أن تضع الحظ يصل إلى غيرك حظا تجوزه إلى نفسك وفي عملك كاف عن أخبارك ، وقد كنت كتبت إليك داعيا للمسالمة راغبا في فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق ، والفسيح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطـــرق ، والبيضة ، فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ، وإلا أزخرف لك في القول ، فإني الخائض إليك غمارها، آخذ إليك غمارها آخذ اليك أسدادها، شان خليها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام))([42]).

ولكن كتاب إمبراطور الروم أثار غضب المأمون؛ لأنه كان يجمع بين اللين والشدة ، ولأن المأمون كان يرغب في فتح القسطنطينية لذلك رفض الصلح مع الروم، ورد على (توفيل) بهذا الكتاب: " أما بعد: فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت إليه من الموادعة ، وخلطت فيه بين اللين والشدة ، ما استعطفت به من شرخ المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الأسارى، ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تغليب الفكرة وإلا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أثره معقبة لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل من أهل الباس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن تحكم ، ويتقربون إليّ بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرقهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنين عاجل عليه ، أو كريم منقلب غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك بالحجة من دعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان أبيت ففدية توجب ذمة ، ويثبت نظره، وأن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لدعوتنا ما يغني عن الابلاغ في القول، والإغراق في الصفة، والسلام على من اهتدى " ، وفي سنة 218هـ خرج المأمون لقتال الروم ؛ ولكن المنية وافته ودفن في طرسوس([43]) .

المطلب الرابع ــ العلاقات البيزنطية في عهد المعتصم بالله:

أما في زمن الخليفة المعتصم بالله (218-227هـ) فقد أصبحت العلاقة بين الدولة العباسية، والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه ؛ ولكن المعتصم كان منشغلا بالقضاء على فتنة بابك الخزمي([44]) .

وإن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم (توفيل بن مخائيل) ، وكان ينتهز الفرص لينتقم من المسلمين الذين دوخوه ، وألزموه بدفع الفدية قهراً ، فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك الخزمي ، وقد ضيقت عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول : إن ملك العرب قد وجّــه معظم عساكره إلي ، ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك ، وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه ، فلم يلبث (توفيل) أن خرج في مائة ألف مقاتل حتى زبطرة ، وهي مسقط رأس أم المعتصم بالله التركية ، فلما دخل زبطرة ، قتل من فيها من الرجال وسبي النساء والذرية وأحرق المدينة ، ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها ، وعلى أهل حصن من حصون المسلمين ، وسبي المسلمات فيما قيل : أكثر من ألف امرأة ، ومثّــل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أذانهم ، وأنوفهم، وبلغت تلك الأخبار المعتصم بســـامراء([45]) ، فاستعظمها ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم، وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره لبيك ، ونهض من ساعته ، وصاح في قصره النفير النفير، ثم ركب دابته([46]) . .

فسار على فوره في جيش ضخم ؛ ولكنه أرسل مقدمته لتكون مددا لأهـل زبطرة، فلما شارفتها ، وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا، فلما انتهى أمــر بابك سأل المعتصم ، أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل له : عمورية ، وهي مسقط رأس والد الإمبراطور(توفيل) ، فتجهز المعتصم بالله جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله بالسلاح والعدد والآلة والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط . وقد ذُكِــر أن جند المعتصم بلغوا خمسمائة ألف، وذكر بعض آخــر مائتي ألف([47]) .

وكان على مقدمتها أشناس وتاوه عمر بن ابراهيم المصعبي ، وعلى الميمنة أيتاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط ، وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل بلاد الروم من درب الحدث ، وسمّى له يوماً أمره أن يكون عند دخوله من درب طرسوس ، ولما وصل أشناس إلى برج الأسقف ، ورد عليه كتاب المعتصم يأمره بالتوقف ؛ لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس، ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده ، فأقام بالمرج ثلاثة أيام ، ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن اللامس يريد مقابلة الافشين ، فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم ، فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الافشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذرا من مواقعة ملك

الروم قبل أن تجتمع الجيوش ، فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على سيره حتى التقى بملك الروم ، فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ، ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة ، وتفرقت عنه الجنود ، أما عسكر اشناش والمعتصم فإنهما وردا أنقره من غير أن يلتقيا حربا .([48]).

وحينئذ قسّم المعتصم الجيش إلى ثلاثة أقسام ، قسم فيه اشناس في المسير ، وقسم فيه المعتصم ، وهو القلب ، وقســـم فيه الأفشين ، وهو الميمنة، وبين كل قسم وآخر فرسخان فسارات هذه الأقسام على تعبئة حتى بلغت عمورية ، وبينها وبين أنقره سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ، ثم جاء الأفشين ، وكذلك تحصّـــن أهل عمورية ، وتحرزوا ، فحاصرها الجيش المعتصمي ، وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة او كثرة ، ونصبت المجانيق فضربت بها الاسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ، ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ، ولم يزل القتال مستمرا حتى اقتحم المسلمون عنوة ، وغنموا منها كثيرا، وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه. وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس ، وكانت إناخته على عمورية في 6 رمضان سنة 233هـ قفل عنها بعد 55 يوماً([49]) .

الخاتمـــــة:

وفي نهاية هذا الجهد المتواضع ، خلص البحث إلى الآتـــي :

1- العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية كانت قد تركزت على الجانب الحربي والدبلوماسي.
2- اعتمد العباسيون على صدّ الهجوم البيزنطي من جهة، ووضع حد لأطماع البيزنطيين من جهة أخرى.
3- وضع العباسيون نظاما لحماية الثغور الاسلامية وخاصة في عهد الخليفة المنصور وابنه المهدي، وأما في عهد هارون الرشيد فقد ارتبطت الدولة العباسية مع البيزنطيين بعلاقات ودية تبادل فيها الطرفان السفارات والهدايا وخاصة في عهد الإمبراطور شارلمان.

الهوامش :

1 - عبدالعزيز الدوري، العصر العباسي الأول ، ص: 91، بغداد، 1845
[2] - السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، بدون طبعة، ص: 214.
[3] - نفس المصدر السابق، ص: 214
[4] - د. اليعقوبي (أحمد بن جعفر) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص: 362، طبعة النجف 1358هـ
[5]- البلاذري (احمد بن يحي بن جابر) ، فتوح البلدان، ج1، القاهرة 1318هـ، ص: 222.
[6] - المصدر السابق، ج1، القاهرة 1318هـ، ص: 222.
[7] - المصدر السابق، ج1، القاهرة 1318هـ ، ص: 197.
[8]- ابن الاثير علي بن احمد بن ابي كرم، الكامل في التاريخ، ج6، ص: 22 بولاق 1274هـ.
[9] - السيد عبدالعزيز سالم، ج3، ص: 216، العصر العباسي الأول، بدون طبعة.
[10] - السيد عبدالعزيز سالم، ج3، ص: 217، العصر العباسي الأول، بدون طبعة.
[11] البلاذري، فتوح البلدان، ج1، ص: 224.
[12] السيد عبدالعزيز سالم، ج3، ص: 217، العصر العباسي الأول، بدون طبعة.
[13] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص: 576 بولاق 1274هـ.
[14] البلاذري، فتوح البلدان، ج1، ص: 200.
[15] نفس المصدر السابق، ج1، ص: 196.
[16] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص: 41
[17] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص: 55.
[18] نفس المصدر السابق، ج6، ص:58
[19] السيد عبدالعزيز سالم، ج3، ص: 219، العصر العباسي الأول، بدون طبعة.
[20] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص: 345، القاهرة 1966.
[21] السيد عبدالعزيز سالم، ج3، ص: 220، العصر العباسي الأول، بدون طبعة.
[22] السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، ص: 219، بدون طبعة.
[23] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص: 85
[24] نبيلة ابراهيم حسن، تاريخ الدولة العباسية، ص 165، ط 1991.
[25] حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في العصر العباسي الأول، ص: 199، ج4
[26] السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، ص: 71، بدون طبعة.
[27] نبيلة ابراهيم حسن، تاريخ الدولة العباسية، ص 166، ط 1991.
[28] حسن ابراهيم حسن، نفس المصدر، ص: 199.
[29] الشيخ محمد الخضري بك، لتريخ الامم الاسلامية، الدولة العباسية، ص: 129-130.
[30] السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، بدون طبعة
[31] نبيلة ابراهيم حسن، تاريخ الدولة العباسية، ص 167، ط 1991.
[32] السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، ص: 224، بدون طبعة.
[33] السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول، ج3، ص: 225-226، بدون طبعة.
[34] نفس المرجع السابق، ج3، ص:226.
[35] الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 135.
[36] حسن ابراهيم حسن، العصر العباسي الأول، ج2، ص: 202.

[37] الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 135.
[38] نبيلة ابراهيم حسن، تاريخ الدولة العباسية، ص 213.
[39] الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 137.
[40] نبيلة ابراهيم حسن، نفس المصدر، ص: 213 .
[41] الشيخ محمد الحضري بك، نفس المصدر، ص:137.
[42] حسن ابراهيم حسن، العصر العباسي الأول، ج2، ص: 203.
[43] حسن ابراهيم حسن، العصر العباسي الأول، ج2، ص: 203.
[44] حسن ابراهيم حسن، العصر العباسي الأول، ج2، ص: 202.
[45] الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 244.
[46] حسن ابراهيم حسن، العصر العباسي الأول، ج2، ص: 202
[47] الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 245.
[48] نفس المرجع السابق، ص: 246
[49] - الشيخ محمد الحضري بك، الدولة العباسية، ص: 146.